مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله الفتاح، والصلاة والسلام على نبى الهدى والإصلاح ﷺ وبعد:

فالدراسات التحليلية التطبيقية التى تقوم على أسس علمية محايدة ما زالت فى طور النشأة، وهى فى طريقها إلى النضج عندما تكتمل أدواتها، وتستلهم من التراث خلاصة تجاربه فى تحليل النصوص وفهمها، فالبحث الأسلوبى ومناهج التحليل المعاصرة عالة على الدراسات الغربية التى تسير فى حذائها وهى تتعثر فيها لا تجد له تخريجاً أو مكاناً فى الدراسات الغربية، وبعض هؤلاء الذين يحترفون النقد والتحليل لا يتجاوزون التنظير وتستغرقهم النظريات الغربية وينشغلون بالاختلاف فيها، ولا يتفقون على مبادئ البحث الغربى لاختلافهم حول المفاهيم وترجمتها إلى العربية وتوجيهها فى الدرس العربى، فيقف البحث عند طرح المفاهيم وتفسيرها، وهو أمر غير حَسْم؛ لاختلاف اللغات والمشارب الثقافية والنظريات.

والذين خاضوا البحث التطبيقى قلة، وقد عوّلوا فى تحليلهم وتأويلهم على التراث العربى الذى أخرجهم من مأذق تطبيق المناهج التحليلية الغربية فى الثقافة العربية، وبعض الذين تبنوا المناهج الغربية تعسفوا فى تخريج الخطاب العربى على أنماط الخطاب الغربى فى التأوبل وغالوا فى القول، وبعضهم نحا نحواً متطرفاً فوجه نقداً لاذعاً لمعطيات تراثه، وقضى بعدم صلاحية الخطاب العربى قديماً وحديثاً للبحث العلمى، ونال من الخطاب العربى وحط منه؛ لأنه لم يجده على أنماط الخطاب الغربى، ووجوه النقد لا تتجاوز النظر دون التطبيق العلمى أو بحث مادة لغوية، وبعضهم تحدث حديثاً غير موضوعى، فحديثه العربى ليس عن الخطاب العربى بل الخطاب الغربى غير أنه عرَّب النصوص التى نقلها، فليست هذه الكتب إلا نقولاً ترجمتها ركيكة، والفكرة غير واضحة، ومعظمها تلفيق بين النصوص ومحاولة للتوفيق بين الأفكار، والذين خاضوا فى الحديث دون التطبيق تورطوا فى سرقات، واُتهموا فى وجهتهم وولائهم واعتقادهم، ولم يعمد بعضهم إلى التطرف بل دفعه إليه النقل المباشر دون نظر أو نقد، وبعضهم شطَّ فى الرأى، وتعصب لرأيه غير مبالٍ بغيره؛ لأنه لم يسبق إليه سواه فظن أن ما يعرفه الصواب ومن دونه الباطل، وهؤلاء الذين دخلوا فى معترك صراع المذاهب الغربية، لم تكن لديهم ثوابت ينطلقون منها لمعرفة الآخر؛ فصار الآخر مصدر معرفتهم ومرجعيتهم التى لا يعدل عنها. وقد امتلأت الباحة العربية بالخصومات والخلافات

والترغيب والتنفير، ولم يتجاوز هؤلاء الحناجر إلى ساحة البحث فى الخطاب والتحليل التطبيقى، فحديثهم حديث من لا يعلم فهم أعداء ما جهلوا، ولو سكت من لا يعلم عما لا يعلم لذهب الخلاف.

وقد صنع خطاب العلوم النظرية تصدعاً فى جسد الأمة؛ لكثرة ما به من جدال وتنازع حول المشارب الثقافية، وقد شغل العقل العربى بجدله عما سواه من النظر فى العلوم الأخرى، وتعده السلطة هدفاً فى سياستها وتحقيق مصالحها، فلم تأبه بالعلوم التجريبية – وهى أساس الحضارة – واكتفت بتوظيف خطاب العلوم الإنسانية فى تحقيق أهدافها، وقد تدفع بمسائل الخلاف إليه لتشغل الجماهير عن التفكير فى حقوقها السياسية.

ولنا رأى ندعو إلى النظر فيه، ولك أن تجافيه: أن الثقافة العربية المعاصرة لا تتجاوز الإطار النظرى، وأنها شغلت الأمة بقضايا كلامية مطروحة منذ بدء النهضة الحديثة، وستظل ما لم تتجاوز الحناجر إلى حقل البحث التطبيقى، والنتائج التى جنتها الأمة من وراء الانشغال بالقضايا الكلامية الخسارة وتضييع الوقت وإهدار الطاقات، وهى بداية غير رشيدة فى إدراك ركب الحضارة، وقد كان " محمد على باشا " عاقلاً رشيداً عندما انصرف عن الجدل القولى إلى إرسال بعثات علمية تتعلم علوم الغرب الحديثة وتترجم كتبه وجلب إلى مصر خبراء فى المجالات العلمية ومرافق الدولة ومؤسساتها فنجت مصر من الجدل اللفظى العقيم الذى يشغل الناس عن مصالح الحياة العلمية، وحققت هذه السياسة نتائج عظيمة، فقد استطاع محمد على (١٨٠٥ – ١٨٤٨م) أن يجعل مصر دولة متقدمة تقوم على مؤسسات، وأقام لها مؤسسة عسكرية ضخمة واقتصاد قوى دعّم خططه التوسعية، وما زالت مصر تنعم بإنجازات محمد على.

فانتبه الغرب إلى أن ما منحه لمحمد على من خبرات وعلوم أقام عليها المؤسسة العسكرية ومؤسسات الدولة واقتصادها فى غير مصالحه وأطماعه فى استعمار الشرق، فقد حالت قوة محمد على دون استعمار الشرق فتراجع الغرب حيناً عن ذلك، فأغرق مصر فى الديون، وحجب علومه، وضيّق عليها فى تحصيل العلوم والتقنية، وقدم للشرق الإسلامى منحاً ميسورة فى المعارف النظرية ويهدفون منها إلى التباعية الثقافية وإثارة الخلاف الفكرى العقيم لتفتيت بناء الأمة بإثارة الجدل بين المثقفين وتغريب الشرق، وأتت هذه السياسات ثمارها، فمازال الشرق متخلفاً حضارياً منشغلاً بالصراع بين المحافظين والحداثيين، وامتلأت حقول

الثقافة بالصراعات والمشارب المتنافرة، ورجال السلطة يزكون نار الصراع لينشغل المثقفون بالصراعات البينية عن النظر فى الحقوق السياسية وسياسة رجال السلطة، وضاعت الشعوب العربية بين الذق والعود، وبين المحافظين والحداثيين، وإعادة طرح قضايا خلافية، والتشكيل فى الثوابت، لشغل الأمة وهدمها.

وانصرف الجميع عن الخطاب العلمى الذى يبحث عناصر بناء الأمة وتقدمها ومعالجة مشكلاتها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية إلى خطابات جدلية عقيمة، والأمة فى حاجة إلى ثقافة علمية فى مجالات الحياة، فالحضارة تقوم على أسس البحث العلمى والنظر فى تطوير العلوم، والدول التى تنشد حضارة تربى علماء وتستقطب الكفاءات وتدعم أرباب العلوم، فالخطاب العلمى أساس تقدم الأمة وتنمية عقولها وثقلها، وهو بوابة الخروج من الخلاف بين الكلاميين والحداثيين والمذهبيين، وهذا الخطاب سيؤثر طوعاً فى الخطاب الدينى فينقله من خطاب مكثف فى الفروع والسلوكيات والمظاهر إلى خطاب يبحث عن حلول موضوعية فى معالجة مصالح الناس الدنيوية وعلاقتهم بالآخرين، ويجعل من الدين سنداً فى بناء الأمة وتنشئة جيل يتمتع بشخصية قوية تتغلب على الصعوبات وتبحث عن حلول لمشاكلها، ويساهم فى بناء أمتها وينتمى إليها فى الظاهر والباطن.

وستتأثر الخطابات النظرية طوعاً بالخطاب العلمى، وستكون تبعاً له ، وستخضع لأدواته المنهجية العلمية، فتوازن بين ثوابتها المتمثلة فى العقيدة والتراث والأعراف ومعطيات الثقافة الغربية فى حقول النقد والبلاغة والأدب والفلسفة والاجتماع وغير ذلك من العلوم النظرية، وهو ما أطلق عليه " العلوم الإنسانية " حديثاً، وهى علوم لها نصيب كبير من الثقافة بل تستحوذ عليها فى العالم الإسلامى، فلا تترك للثقافة العلمية شيئاً، فالاهتمام بالعلوم التجريبية مرحلة متأخرة؛ لأن رجال السلطة يقدمون دعمهم لما يحقق مصالحهم، والعلوم التجريبية لم توظفها السلطة فى مصالحها لافتقادها إلى الوعى العلمى الذى يمكنها من استثمار العلوم فى الأهداف السياسية، فلم تحظ هذه العلوم باهتمام السلطة ودعمها، فالبحث العلمى مهمل سياسياً وتوجه الدولة دعمها لوسائل الترفيه والتغييب التى تجانس هواها وتحقق مصالحها، وهذه أزمة أخرى يحياها أصحاب العلوم العملية، وهم – من حيث النفع – رواد الحضارة وأصحاب الفضل فى تقدم البشرية بيد أن أصحاب العلوم الإنسانية يتسلطون على أصحاب القرار ومؤسسات الدولة ووسائل الإعلام، وشغلوا الناس بخطابهم

النظرى العقيم بدعوى التنوير والتجديد والتحديث والتوعية، والبداية تكون بالبحث العلمى، وتأتى العلوم النظرية تبعاً له.

والأمة ليست فى حاجة إلى العلوم النظرية بل إلى المعارف العلمية التى تعالج بها مصالح الأمة الدنيوية، فالأزمة أزمة مواجهة الحياة وتحديها، وليست أزمة خطاب نظرى عقيم يدور فى رحاب اللغة والفكر، والجدل بين المذاهب والتيارات، فشغلوا الناس بالخلاف عن النظر فى بحث مصالحهم الدنيوية.

والبداية الصحيحة نحو التقدم تبدأ من العلوم التجريبية، وهى بداية موفقة ابتدأ بها محمد فى إقامة دولة عصرية، ولم تنشأ فى عصره أزمة نقدية أو فكرية أو صراع بين العلمانية والأصولية المحافظة، فقد دخلت الأمة معترك الخلاف بعد أن ترك المثقفون المجال العلمى التجريبى وانشغلوا بقضايا الجدال، وهى مؤشر انهيار الأمة وانحطاطها، وهؤلاء الذين يتقاتلون يدعون إلى حرية الفكر والتنوير، وهم متسلطون على العقول ويستبدون بالخطاب ولا يرون حقوقاً يمارس الآخر فى ظلها اعتقاده وحريته، وشاهد ذلك أن خطابهم موجه ضد الآخر، فالآخر مصدر الرجعية والظلام، وهم أولو التنوير والاستنارة. والحرية عندهم تعنى التجرد من المرجعيات العقدية والعرفية والاجتماعية، وهذا المفهوم للحرية لا يسمح باحترام معتقد الآخر وحقه فى اختيار وجهته فى الحياة، فهم لا يرون إلا ما هم عليه من حداثة مجهولة الدلالة، وكل حزب بما لديهم فرحون، وهؤلاء منشغلون بقضاياهم الخلافية، وهم فى غفلة عن ظهور تيارات شاذة وعقائد مجهولة، وجدت متسعاً لها فى وسائل الإعلام التى تلهث وراء الإثارة، وهذا خطر يهدد اللغة.

والسياسيون بعضهم ضحول المعرفة، وليس لديهم مرجعية أو ثوابت عقدية أو فكرية أو أهداف ينطلقون منها فى قيادة الأمة، ومن ثم لا يجد العلماء مكاناً بينهم أو مجلساً يتواصلون معهم فيه، لعدم وجود جسور معرفية يتواصل بها الطرفان، فلا يشارك العلماء فى السلطة، ويعيشون بمعزل عن الحياة السياسية، فصارت السلطة فى حوذة أرباب السلاح والمال، وخسرت الأمة لافتقادها عناصر نافعة تعيش بمنأى عن أصحاب القرار ولا تستعملهم السلطة، واستغنت عنهم بفئات تشايعها وتعيش على بقايا موائدها، فكثر النهب وساء شأن الناس، واكتفى أهل الكفاءة بشجب الأحداث وندب الكوارث، فلا يلومون إلا أنفسهم، لأنهم تركوا أماكنهم فاستحوذ عليها غير أهلها، فأسند الأمر لمن يفسده !

والخطاب العربى المعاصر شاهد على تردى الوضع السياسى، ويجسد معترك غير الأكفاء، فلا يتوازى مع غيره، ولا يطابق واقعه، فهو خيال فى وجدان غائب عن الوعى أو هائم فى أحلام العاجزين، وما زال صاحبه يترنح فى بادية يستعدى شعبه على الأعداء للثأر، وليس معهم إلا السيف، فأهلم من بقى منهم !

ولا شك أن الخطاب السياسى الناضج له أثر عظيم فى حياة الشعوب وتوعيتها، والإعلام قوة أخرى تستطيع بها السلطة تعزيز الأمة وتنويرها، والارتقاء بخطابها اللغوى والسياسى والإسلامى، فالسياسة والإعلام لهما دور كبير فى تطوير اللغة ونموها وانتشارها، فاللغة تصل حيث تنتهى حدود الدولة وتبلغ منتهى بث وسائل الإعلام، فالسياسة والإعلام مؤثران فى حياة اللغة المعاصرة، وعاملان رئيسيان فى تطورها وانتشارها، لما تتمتع به السياسة من نفوذ شعبى وبما تملكه من قوة تمكنها من زمام المجتمع، والإعلام من الوسائل المؤثرة فى اللغة، لأنه أكثر وسائل الاتصال انتشاراً وأقواها تأثيراً فى الجماهير وأيسرها تواصلاً ، ويملك قنوات متنوعة ويقدم الرسالة فى أفضل صورها، ويوظف لغة متوسطة تفهمها طبقات المجتمع على اختلاف مستوياتها ومشاربها الثقافية، ويعد عامل السرعة وسيلة أخرى توظفها وسائل الإعلام. وقد تقدمت وسيلة اتصال أخرى وصارت أعظم خطراً من صواحبها، وهى الانترنت (المعلوماتية)، وخطرها أنها بلا ضابط أو قيد يحكمان حريتها ويقنان العمل فيها، فمستخدم النت مطلق الحرية ولا رقيب عليه وليست أمامه حواجز، وهى وسيلة تنفيث للصغار الذين أسرفوا فى استخدامها وتقدموا فيها عن كبار السن واستطاعوا تنمية قدراتهم فيها، وخطورتها فى عدم ضبط استخدامها وحرية التجول فيها بلا موانع.

ووجدتها الاتجاهات المحظورة والجماعات السياسية والحركات الثورية مخرجاً من التضييق عليها والتعتيم الحكومى، فخرجت عن سلطة الدولة، واستطاعت مد جسور لها عبر شبكات المعلومات، واللغات كلها متاحة فى التواصل المعلوماتى، وتبارى أصحابها فى تقديم تقنيات أكثر دقة وأوفر استخداماً، وهذا نذير خطر يهدد بخروج الأفراد عن الأعراف العامة وسلطة القانون، وقد لجأت التيارات المحظورة إلى هذه الوسائل الدعائية التى لا تخضع لسيطرة السلطة، فبثت أفكارها وأعلنت عن نفسها، ووجدت دعماً من أصحاب المصالح داخلياً وخارجياً.

واللغة قناة الاتصال الرئيسية فى هذه القنوات، وحركتها فيها تجاوزت الماضى الوئيد، وحركته السريعة سبب فى تهميش الدلالة وتباينها وانحرافها وفكاكها عن الأصل الذى وضعت له، ولا سبيل إلى دفع ذلك إلا التوعية الجماهيرية. والله الموفق ،،،

الدكتور محمود عكاشة

الأربعاء ١١ ربيع الآخر ١٤٢٧هـ

١٠ مايو ٢٠٠٦م

مقدمة الطبعة الأولى

الحمد لله مالك الملك، ﴿الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾ [الفرقان : ٥٩]، وأصلى وأسلم على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، الذي أرسله ربه شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيرا، وأنزل عليه الكتاب بالحق وجعل له سلطاناً نصيرا، أما بعد :

فقد جعل الله تعالى للكلمة سلطانًا، وجعل أجملها أفصحها بياناً،وأوجزها لفظاً، وأسرعها إفهاماً، وأكثرها تأثيراً، وأعمقها مراماً.

واللغة سجل حافل يرصد تاريخ البشرية، ويصور مراحل تاريخها، ويجسد أوضاعها، ويحفظ فكرها وإبداعها، فاللغة ظاهرة اجتماعية ترقى برقى المجتمع وتتسع باتساعه، وتتطور بتطوره، وترتبط ارتباطًا وثيقًا بحركته، وتؤثر السياسة تأثيرًا مباشرًا في لغة المجتمع، فالسياسيون يصنعون مصطلحات جديدة تعززها الأحداث اليومية والعلاقات الدولية والتفاعل بين الأمم، فالسياسة من أكثر العوامل المؤثرة في اللغة ودلالتها، لاتساع مجالها وكثرة تفاعلاتها دولياً وسرعة تطورها، وتغيرها، فالسياسة تصنع كل يوم لغة جديدة، تعبر عنها، وتوظفها في التفاعل والصراع، وتستعين في ذلك بتقنيات عالية في مبارياتها مع الآخرين، وتمنح الألفاظ دلالات جديدة، وتستطيع توظيفها وإرسالها سريعًا، وإقناع المتلقي بها، وتلجأ في ذلك إلى وسائل لغوية وغير لغوية،وتدعم خطابها بالصوت والصورة والمال.

والسلطة بما تهيمن عليه من مصادر الدولة الاقتصادية توظف جزء منها في خدمة مصالحها الدِّعائية – تستطيع أن تغزو المتلقي، وتمارس عليه ضغوطًا متنوعة – ووسائل تأثير متعددة لا تستطيع الفكاك منها أو النجاء من تأثيرها.

وقد فطنت الأقطاب السياسية في العالم إلى دور الإعلام الفذ في توجيه الرأي العام العالمي إلى خططها ومصالحها وخدمة أهدافها، فصنعت مفردات دولية تبثها وسائل الإعلام الدولية، والدول الفقيرة أسيرة ما تقدمه وسائل الإعلام الاستعمارية، وقد ظهر أثرها واضحًا، فقد تبث في قنواتها ما هو ضد مصالحها غير مبالية بما تقول فلا تعقل ما تقول ولا تنتبه إليه إلا بعد أن يوقظها خطب جلل، وقد وظفتها بعض أجهزة الدولة في تحقيق أهداف سياسية في الداخل والخارج، فأغنت الدولة عن استخدام القوة. والخطاب العربى المعاصر فى حاجة إلى بحث علمى دقيق يحلل مضمون الخطاب من خلال اللغة الموظفة فيه وعلاقة

الخطاب بالواقع، والدراسات المعاصرة تدرس الخطاب نظرياً دون تحليل مستوى المضمون واللغة، وتعتمد فى بحثها على معطيات البحث العربى وتقنياته، ويعالجون الخطاب العربى فى ضوء البحث الغربى، وهذا الاتجاه لا يقدم نتائج دقيقة لاختلاف اللغات وخصائص الأسلوب، والدقة فى البحث تقتضى أن تكون أسس التحليل من اللغة وقواعدها فى ضوء ظروف إنتاج الخطاب وعلاقته بالواقع والمشاركين فيه، ويستفاد من البحث الغربى فى التعرف على خصائص الخطاب ومناهج التحليل التى تصلح للخطاب العربى.

ومازال الدرس التحليلى فى مرحلة النضج ولم تكتمل أدواته الموضوعية التى تمكن الباحث من اكتشاف أغوار الخطاب دون تحيز، ومازال البحث الأسلوبى نظيرياً ينقل عن الغربيين، فلم تكتمل شخصيته العربية التى تطوع التراث للبحث المعاصر، وتستفيد من معطيات الدراسات الغربية، وإن تمكن الباحثون العرب من المزاوجة بين التراث والحداثة فستكون لديهم القدرة على الوصول إلى أسلوبية معاصرة تدرس النصوص دراسة علمية تطبيقية دون أن تحملها على المفاهيم الغربية أو أن تتعسف فى تأويل النصوص وتوجيهها.

وتوجد علاقة حميمة بين اللغة والسياسة، فكلاهما ينتفع بالآخر، ويرتزق منه ويقتات من موائده، فالسياسة لها دور كبير في انتشار اللغة، فاللغة تنمو في ظل امتداد الدولة وتقدمها، وترتقي برقى الدولة وتنهض بنهضتها، فالأمم ذات التاريخ تبسط إلى جانب سلطانها لغتها، فتغلغلت في الأمم التي هيمنتها عليها سياسياً واقتصادياً وثقافياً، واتسعت بامتداد نفوذها في الأرض.

فاللغة الرسمية هي لغة الأمة المهيمنة أو لغة الأسرة الحاكمة أو رجال السلطة أو لغة العاصمة، فالإنجليزية انتشرت في العالم الحديث بفضل امتداد الاستعمار الإنجليزي، وانتشرت الفرنسية بفضل ثقافتها ونفوذها الاستعماري، وانتشرت العربية في العالم الإسلامي بفضل القرآن الكريم أولاً ثم بفضل دولة الخلافة، وبفضل الثقافة الإسلامية ثالثاً، وبعض أبناء الدول الفقيرة يتطلعون إلى معرفة لغة الأمم المتقدمة التي بهرتهم، فتتقلص لغتهم وتغتال أرضها لغة الغازي الجديد، فينشأ جيل عبيد للثقافة الوافدة، ويقع الخلل بين ثقافتين، فيتصارعان في أرض واحدة، فقد لا يقبلان التعايش معًا، وهذا شأن كثير من الدول النامية، ونخلص من ذلك إلى أن الأمم الضعيفة عبيدة لغة الأمم القوية، وأثيرة خطابها وسلوكها، والأرض العربية جزء من هذا الصراع الثقافي المحتدم، فلكل ثقافة رجالها، وكلهم يذبون

عنها، ويتعصبون لها ويرونها الفضلى دون غيرها، وقد تمخض عن هـذا الـصراع خطابـات عديدة.

وليس للعرب خطاب واحد بل خطابات، فبعضهم يتحدث خطاباً سلفيًا يحمل في طياته أفكار الماضي التليد، ويوظف فيه مضامين تراثيـة غيبهـا الحاضـر، وهـؤلاء يحـسبون أنهـم محافظون، وبعضهم يتحدث خطاباً علمانياً مغالياً أحيانـاً، فيـصور حيـاة الغـرب العلمانيـة تصويراً شفافاً مثالياً، ويجعلك تتمنى أن تكون غربياً أو تسكن في جنة الغرب، وتمقت ما أنت عليه، وهؤلاء يرون الفكر الغربي نموذجاً متكاملاً يحتذونه، وينشدون مجتمعـاً عربيـاً مثلـه، ومؤيدو هذا النموذج من الشرقيين، لا يعرفون عنـه إلا الفكـرة النظريـة، وكـل مـا يتعلـق بالسلوك، وخطابهم يحمل في مضمونه صورة مجسدة لهذه الحيـاة، بيـد أنهـم يتجـاهلون مـا نحتاجه من علوم تقنية، والغرب نفسه يمتنع عن إفادتهم في هذا المجال، ولا يقدم لهم إلا علوماً نظرية يثير معظمها جدلاً فكرياً، وقد اكتشف الشرق حقيقة الغرب الزائفة، وعلم يقيناً أنـه مستهدف استعمارياً، وأن علاقة الغرب بالشرق علاقة الذئب بالشاة، والخطـاب العلمـاني شغل الساحة بالفكر الغربي الذي استغرقه، فتمخض صراع ثقافي داخلي استوقف المجتمـع عن ملاحقة التطور العلمي الغربي، فالحضارة التي تسيطر علـى رواد الثقافـة المعاصـرة، لا تبرح الأدب والفلسفة والتاريخ وغير ذلك من العلـوم الإنـسانية النظريـة، ومـازال المجـال العلمي التقني غائباً، ولا يجد عناية كافية من الدولة، ويعتمد على مـا يقدمـه رجالـه فقـط، والمجال العلمي أحق برعاية الدولة وأولى من غيره ، ولكن أرباب المجال النظري يهيمنون على السلطة التي تستعين بهم في بقائها واستمرارها. وبعض العرب يتحدث خطاباً دينياً، وهو من الخطابات المؤثرة جمهورياً، وترجع قيمته إلى علاقتـه الحميمـة بالعقيـدة، فالقيمـة ليـست في الخطاب أو صاحبه بل في موضوع الخطاب " الدين ".

وقائل الخطاب الديني قد يكون واعياً، فيضمنه أفكار تتسق مع الواقع، وتحقق مقاصـد معاصرة، ويعالج القضايا بموضوعية بعيداً عن الخيال والتأمل، ويقدم لـك وسـائل إقناعيـة تحسم موضوع الخطاب، وترفعه إلى مرحلة الصدق و آخر يقدم لك خطاباً محفوظـاً تقليـدياً يصلح في كل موطن يشبهه وليست فيه زمنية، فهو مطلق، فقد يكون مجتزأ من قرون ماضية، وتفوح منه رائحة الماضي، ويسحبك من حاضرك إلى ماضيك، ثم تستيقظ على ما أنت فيه كأن لم يك شيئاً، وقد لا تأنس بمضمونه، ويعز عليك سماعه، فالخطاب إن لم يجد أذناً ولم يجد

عقلاً يقبله فلا خير فيه، وكثير من أصحاب هذا الخطاب يجعلونك تعاصر الموضوع بخيالك فقط؛ لأنه لا يتسق مع الواقع، فالقائل يرسل خطابه وهو مغيب عن الوعي.

وقد يجد هذا الخطاب صدى عند العامة لكنه ليس فعَّالاً، ويقدم آخرون خطابًا آخر أكثر موضوعية يعالج فيه القضايا معالجة حيَّة فيها إقناع، ولكن هؤلاء غائبون إعلامياً، ومهمشون سياسياً، فالسلطة لا ترى إلا خطابها الفردي نموذجاً مثالياً. والخطاب الديني والخطاب العلماني يتصارعان في الساحة الثقافية الإسلامية وتقف السياسة من وراء هذا الصراع، فتسلط أحدهما على الآخر وتعينه ليكفيها الآخر، أو لتشغل به الفئة المثقفة عن النظر في الوضع السياسي الراهن، فنقلت المعركة إلى ساحة أخرى، وتركتهم يقتتلان، فظهر تيار مغالٍ في كلا الخطابين يتبنى اتجاهاً متطرفاً يتعصب لفكره ويغالي فيه، فحوّل الخلاف في الرأي إلى خصومة وحرباً مغالاة، فخرج الخطاب العلماني بفكر شديد العداوة لتراثه وعقيدته، وظهر من بين رجال الدين من لا يرى له إلا وجهين الكفر أو الإيمان. والخطاب السياسي يعد من أكثر الخطاب انتشاراً وتوجيهاً، وينازعه منزلته الخطاب الديني بيد أن الأخير خطاب وجداني، والأول خطاب عملي، والثاني له سلطان روحي، والأول له سلطان سياسي متسلط.

وتجتمع هذه الخطابات في أنها موجهة إلى متلق أو تقع بين طرفين مرسل ومتلق، وتشترك أيضاً في قنوات التواصل، لكنها تتفاوت في التأثير والإقناع والانتشار، فالغلبة للخطاب الديني والخطاب السياسي والإعلامي، ويعد خطاب السلطة أكثر أنواع الخطاب السياسي انتشاراً وهيمنة وفاعلية؛ لأنه مدعم بسلطة أصحاب القرار، وعرف بالخطاب السُّلطي (أو السلطوي)، بيد أنه لا يبلغ درجة تأثير الخطاب الدينى فى الجماهير على ما يفهمه عليه بعض رجاله من تضيق أو تقطيع أو تكثيف، فبعضهم جرد الدين من أسسه وأهدافه، وجعله فى الزيّ والقول دون الأهداف الكبرى والمصالح العظمى، وتقديم المبادئ الأساسية على الفروع الاجتهادية التى انشغل بها بعض العلماء عن قضايا الأمة العظمى كالأرض والاقتصاد والإبادة وتفتيت جسد الأمة، وإهدار الطاقات وهجرة الكفاءات، وفساد الإدارة السياسية وهيمنة أهل الجهالات على الأمر واقتصاد الأمة، وهوان أمر المسلمين والاستخفاف بحقوقهم وضياع الشخصية الإسلامية الواعية والصراع بين أبناء الأمة

والفتن الدموية والصراعات الكلامية والعداوة بين أبناء الأمة، وهذا أول ما يبدأ به الداعية الواعى فى الإصلاح الدينى والتوعية.

وهذا الكتاب واحد من زمر الكتب التي كتبت في هذا الموضوع، ويعد مساهمة متواضعة مني في الإنتاج الضخم الذي صنعه رجال أحسبهم أكفاء وعلى خير، ونسأل الله تعالى أن يهدينا إلى ما يحبه ويرضاه من صالح العمل، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الدكتور محمود أبو المعاطي عكاشة

القاهرة - محمد فريد

الإسكندرية - زيزينيا

شوال ١٤٢٣هـ - ديسمبر ٢٠٠٣م